

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر .

إذن فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يصلُّوا ولم يُزكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث ؟ . إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم .

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين ؟ .

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ  
حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ  
لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التي هي الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد . وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآنوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل ؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم ، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التي نزل بها هذا الدين ؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم يقدر عليهم بأي عقوبة من العقوبات التي جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه ؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه ما دام قد استجار بك فأجره ، وإذا أجرته أسمعته كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم ؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله ؛ ولكن ابْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ، أى اسأله من أين جاء ؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التي ينتمى إليها أو حدد المكان الذي جاء منه فتأكد أنه سرف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذي يجد فيه الأمان . وهذه هي المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر ،

وهي مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيبين بالمؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى تفضل على خلقه في الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرسال من سبقوه من الرسل . وكان الناس قد نسوا منهج السماء ، بل وحرف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لا بد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل في الإيمان مناعت متعددة ، توجد أولاً في النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصية ، فالضمير الإيماني يردعها عن تلك المعصية ويتوب الإنسان ويرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيماني وتلك هي النفس اللوامة . ومعنى مجرد اللوم في النفس هو أن الإيمان مازال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذي يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوي .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفة المنهج ولم تعد نفساً لوامة ، وتظل ترتكب المعاصي حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيماني ، فتجدها قد عشت - والعباد بالله - مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً آمرة بالسوء ، وهنا ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصي يردعونه عن المعصية ، ويقضون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يقىء إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فلا بد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مزيد بمعجزة من السماء ليوقف الناس من هذا السبات العميق الذي شغل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواجه هذا المجتمع الذي انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لا بد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهة للرسول إنما جاءت من المنتفعين بالفساد في الأرض . والمتفجعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأنروا هم بالمنافع ربما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقي عباد الله .

والمتفجعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة في الكون . فلا بد أن يقفوا في وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منافعهم وأموالهم التي حصلوا عليها بالباطل والظلم ، ومن استعبداهم للناس . وكانت الجزيرة العربية في ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قانونها الذي يضعه شيخها لينتأثر بنفسه بكل شئ .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عززتها ولها شوكتها ولها حرريها . وكل فرد في قبيلة لابد أن يكون مقاتلاً يحمل سلاحه مستعداً للحرب في أى وقت ، لأنه مهدد في أى لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هي قريش . فقد أخذت السيادة ولا يعتدى عليها أحد ولا تنأجّم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة في الشمال أو في الجنوب أن تهاجم تجارتها ؛ لأن هذه القبائل كلها ستأنى في يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام في مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل في حاجة إلى الأمان من قريش ؛ ولذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقتها مع قريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التي جعلها الله لقريش هي الضمان . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هروجه كعصف مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾

الفيل

فإذا قرأت السورة التي بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكان حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش .  
ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس ، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيداً عن هذه السيادة ؟  
لأن الحق قد أراد أن تكون حبيبة الحق في جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام في أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعاً حتى يمحض الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام في العالم ، فلا يعتق الإسلام منافقاً أضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين في قلوبهم إيمان حقيقي ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام في مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة ؛ لأن قريشاً لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتراء ، ليسردوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقياً . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً ، أن العصية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلق العصية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان

وبين سادة الكفر ، وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة إلى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون في إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ، ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، وأصبحوا يحشون عمن يحميمهم ويستجيرون به ؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد ؛ ومؤلاء هم الذين سيصبحون مأمورين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفه ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ؛ فقالوا : نعيد إيطكم فترة وتعبدون إلها فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث « قطع العلاقات » ، فقال الحق عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [ الكافرون ]

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تنسم بأنه لا مهادة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لألهة الكفار ؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تخريباً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهي هنا في هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى في السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارئ ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشري وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المتفعين بالفساد في الأرض ؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادة

. ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا فشلت حيلة الكفار في تميع وتنضيع قضية الدين ، وضاع مكرمهم ، وبقي الوجود الإيماني قوياً متحلاً في مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتفال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر في غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم القلة الضعيفة المستذلة والمستكينة ، بل أصبحت لهم قوة ولهم قدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بداية المرحلة التي أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاقد هو اعتراف بدولة الإيمان ، وهي المسألة التي فطن لها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : علام تعطى الدنية <sup>(١)</sup> في ديننا .

هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما رأت أم سلمة رضوان الله عليها خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : « يا رسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وما هم أراءه الآن على مقربة من البيت ولكنهم

(١) الدنية : أصلها الدنية بالهمزة ولكنها تحذف وهي صفة لمحذوف .. أي الحالة الدنية الخسيسة .

ممتنعون من الطواف به ؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله ؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيزة لا نزاع فيه ، هذا ما حدث . فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلح الهدى وتحلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع ما يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .

لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة رده إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كفار مكة لا يردونه . وقد وجد البعض في هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية في الدقة ، وعندما جاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه يكتب عن رسول الله وأمل : هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو . اعترض سهيل قائلاً : لو كنا نؤمن بأنك رسول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . هنا ثار على بن أبي طالب وضوان الله عليه وقال : لا ، لابد أن نكتب هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو .

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهي الموقف فنظر إلى على وقال : « يا على اكتب فإن لك مثلها تعطيتها وأنت مضطهد » أي أنه سوف يحدث لك نفس الشيء الذي ترفضه الآن فتقبل ، وكان هذا من علامات النبوة لأن علياً وقف فعلاً هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعاقد عليه على بن أبي طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعاقد عليه على بن أبي طالب . وتذكر على بن أبي طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب فإن لك مثلها تعطيتها وأنت مضطهد » .

على أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قول الحق

تبارك وتعالى الذي يزيل من القوم المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة :  
﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ  
مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّرَهُمْ فَتُصَيِّكُمْ مِنْهُمْ  
مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ  
عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٧٥) [ الفتح ]

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من  
المؤمنين والمؤمنات الذين يكتُمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار ؛  
وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم  
في قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلا لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين  
والمؤمنات المقيمين في مكة بأيدي المؤمنين ، ولكان عارا أن يقتل مؤمن مؤمنة أو مؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهي صيانة دم المؤمنين . ولما أتت ذاته نجد أن صلح  
الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر في الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض  
الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقي للإيمان ، وجاء في ذلك تلك المقولة  
المأثورة : « لا فتح في الإسلام بعد فتح الحديبية » ولكن الناس لم ينسح فكرهم إلى  
الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لا يعجل لعجلة عباده حتى يبلغ  
الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام في الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين  
زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة  
الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهي التعاهد والتعاقد . ولقد وفق  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهدده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعادت قبيلة  
بنو بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام  
بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة  
مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء



المعاهدة التي أبرمت بينه وبين قريش لتنقض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة في العام الثامن الهجري ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر بيته من المشركين وأن يعلن أنه لا معاهدة بين الإيمان والكفر .

لقد أراد الله أن يحرر «المكان» وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر «المكين» وهم البشر فلا بد - إذن - أن تطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُمنع المرأة من الطراف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود في البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات ، لكن سباحة الإيمان وحسب الله لخلقهم جميعاً لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأمروهم فوراً ، لا ، بل منحهم أربعة أشهر لعلهم يفيثون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم في حريمهم ضد الإسلام ؛ لأنهم غير معجزى الله في الأرض ، أي لن يعجز الله استعدادهم أو مكرهم أو أى شيء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت العقوبة على الكفار إما بالقتل وإما بالحصار ، أو بالترصد ، أو عليهم أن يدبروا أمر حياتهم بالسباحة في الأرض ماداموا قد أصروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين في هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يفي الباب مفتوحاً للكفار لكي يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

[التوبة]

وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، إذا استجار بك أحد من المشركين فأجره ، ونحن نعلم في اللغة العربية أن «إن» الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على

اسم أبداً ، فتقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إن» في قوله تعالى :

[ المجادلة : ٢ ]

﴿ إِنَّمَا هَآتَهُمُ الْإِلَٰهَ الْأَلَمِيُّ وَلَدَتْهُمْ ﴾

فهذه ليست «إن» الشرطية ، ولكنها «إن» النافية ، وهي مع «إلا» التي بعدها لإفادة التأكيد والقصر ، أي قصر الأم على الوالدة ، إلا أنه من بلاغة إعجاز القرآن الكريم جاء بعد «إن» الشرطية اسم في قوله تعالى :

[ التوبة : ١٦ ]

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾

وكان القياس أن يقال : «إن استجار بك أحد المشركين فأجره» ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء به «أحد» بعد «إن» في أول الكلام ، ولذلك فعندما نعرب كلمة «أحد» في الآية الكريمة السابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعلة من جنس المتأخر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هذه اللفظة من القرآن الكريم ؟ نقول : إن هناك مستجيراً وهنا طلب استجارة ، فهل الاستجارة عرف بها المستجير ، أم عرفت الاستجارة منه ؟ .

وأقول : لنفرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أماكن الكفار ، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسده أمام المؤمنين ، هنا تكون الاستجارة قد سبقت ظهور المستجير ، وكان الأذن هي التي استجبرت أولاً ثم رأت العين جسد هذا المستجير ، وقد يختلف الأمر ، فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبينها إلى أهمية الانقضات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعد ذلك ، ولا بد أن يأخذ المؤمن حذره حتى لا يتقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاستجارة تعنى طلب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكون المستجير ضعيفاً

لا يقدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر في مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنة ليتعرف على الهدف من الاستجارة ؛ أهى استجارة لمجرد تطويل أمد البقاء على الكفر ؟ أم هى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعالى ، أو أنه يريد أن يسمع حكم الله على الكفار فى سورة براءة . أو يريد أن يسمع كلام الله بها يقذف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يريد أن يسمع شيئاً فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة ؟ .

إن فطنة المؤمن يجب أن تتسع لتفسير أغوار المستجير ، وطلب الجوار أو الاستجارة كان معروفاً عند العرب . فإذا استجار شخص بعدوه فعليه أن يجيره ، وهذا دليل على شهامته . وإذا كان الإيمان قد فرض على المسلمين إجارة من يطلب الجوار ، فهذا دليل على قوة الإيمان وعظمته وسماحته ، ولعل خيرة الإيمان الفطرى فى نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على السوالى أو أى واحد من المسلمين أن يجير المستجير ، ولماذا لانمعه ونتكلم معه على يؤمن . ويدخل حظيرة الإسلام وفى الإسلام يجير الوالى أو أى واحد من المسلمين ؛ لأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ولا يوجد دم سيد ودم عبد ، ولا دم شريف ودم رخيص ؛ وإنما يسمى بدمتهم أديانهم ، ولذلك إذا أجاز أى مسلم إنساناً غير مسلم أو إنساناً كافراً يجار من جميع المسلمين ؛ حتى العصى الذى لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذى لا يعقل . لهذا أولئك أن يجير بشرط أن يوافق الوالى أو المسلمون على ذلك . لماذا ؟ لأننا نأخذ على الكفر أنه يشتر بالتماهد وينتاسى المروءة ، فلا بد أن نتمسك نحن المؤمنين بالعهد ، فإذا استجار أحد من الكفار فلا بد أن نفى بالعهد .

ولكن كيف يكون للعصى والمجنون حق الإجارة ؟ نقول : إن العصى من المؤمنين انتفع بالإسلام لأنه تمت تربيته تربية إيمانية وفقاً لنهج الله وشأ فى نسوه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِيمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤]

بل إن الإسلام يعطى التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبي قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبي قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذي بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً ؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمنا أن المؤمنين تنكحاً دماؤهم ويسمى بذمتهم أدناهم . فلما أن صبياً أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله ؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبي استضاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التي تحملت حملة وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد في الرحم لأمكن للمرأة حين ينمى بها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبي بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو في بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، ويمثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل في رحم أمه حماء الإسلام - كما قلنا - بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزني قال :

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض

وفساد كبير» قالوا يا رسول الله وإن كان فيه ؟ قال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات<sup>(١)</sup>.

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : في حديث له :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث فيها يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه يقول : قال صلى الله عليه وسلم «تتكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك»<sup>(٢)</sup>.

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبي في كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟ .

وقد يقال إن الصبي منتفع بالإسلام ، أما المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من التكليف ، ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول ، صاحب العقل قصارى ما يصل إليه أن تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا ؛ لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسب يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حظاً أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التي قد تؤذى ذوي النفوذ فلا يعاقبه أحد ، ويكفى أن يقال إنه مجنون حتى يعفى من العقاب ، ورب كلمة حق واحدة تصدر من مجنون ؛ تكون أرجع عند الله عز وجل من أصحاب عقول كثيرة ظلوا طوال حياتهم بنافقون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .

(١) أخرجه الترمذى في سننه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

إذن فهناك مهمة في الحياة قد يؤديها المجنون ولا يؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئاً فإنه يميز عنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله بآبى إلا أن يعرضه ، ولذلك تجدد من فقد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس في خدمته ؛ هذا يأخذ بيده ؛ وهذا يقوده في الطريق ، وهذا يحضر له الطعام والشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أخرج مثلاً ، تجدد هذا يعاونه ، وهذا يأخذه معه في سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يريد . بينما يقضي السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجرة بلا فائدة . بل إنك إن نظرت إلى الفقير تجد أن الله قد جعل له عدداً من الأغنياء في خدمته ، فغلان يحرث ويعزق ويعطيه الله خير الزراعة لبيعه ويفيض منه على الفقير ، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضاً من دخله للفقير ، بل إنه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقاً ليعطيه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخذ شريطة ألا يكون مدعياً للفقير . فما دام قد قبل حكم الله بالفقر والعجز ، يوضح له ربه : لقد رضيت بأنى أعجزتك ، فخذ من قدرة الأغنياء ما يعينك في حياتك ، فهذا مُلْكٌ كَوْنِي له نظام ، وأقول ذلك حتى تفهم أن الغنى والفقير ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هي أغيار ، ولذلك لا أحد يضمن عَاقِبَةُ ، وعلى الواحد منا إن كان قادراً أن يعطى الفقير ، حتى إذا ضاع منا المال وجدنا من يعطينا ، وأن نساعد المريض ، حتى إذا مرضنا وجدنا من يساعدنا ، وأن نكون في خدمة الناس وقت شدتهم حتى يكونوا في خدمتنا وقت شدتنا . وفي نفس الوقت حين ترى من حرمة الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعاني في مشيه تنبهنا إلى نعمة الله في أن أعطانا قدرة المشي .

ومكنا فالإنسان لا يتنبه إلى النعمة إلا إذا رأى من هو محروم منها . وكذلك أراد الحق أن يرضى كل ذى آفة قبل آفته ولم يتمرد عليها ؛ لذلك يفيض عليه بالخير . إذن فكل إنسان أسلم يستفيد من الإسلام حتى الصبي والمجنون استفاداً من

الإسلام . وكذلك فلا بد أن نرد التحية لمن بلغنا هذا المنهج الذي أعطانا الحماية ،  
فتقرأ المنهج ونعمل به .

وحين تستقرى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجده يرد جميل كل من  
ساعده ، ومثال ذلك حليلة السعدية التي نالت شرف إرضاعه صلى الله عليه وسلم  
وهو صغير ، ثم أكرمها الرسول هي وأسرمتها بعد أن صار نبيا .

ثم ألم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليطلب النصير له في  
تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضى الله عنها و وفاة عمه أبى طالب ، وعز عليه النصير  
وفكر في العودة إلى مكة ، والشمس من يجبره حين يدخلها فأجازه واحد من الكفار هو  
المطعم بن عدي ، فإذا كان كافراً قد أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدعو  
لمحاربة الكفر ؟ أفلا نجبر واحداً من الكفار لنرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحد من الكفار قد أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة فلا بد  
أن يرد المؤمنون كلهم التحية بأن يجبروا من يستجبرهم من الكفار . وبعد أن يجبر  
المسلمون من استجذبهم من الكفار على أن يسمعوه كلام الله . وبعد ذلك هناك  
أحد أمرين إما أن يعلن الكافر الإيمان ، وفي هذه الحالة أصبح من المؤمنين ، وإما أن  
يصر على كفره وعناده ، وفي هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئولية أن يبلغوه مأمته ،  
وذلك بأن يساعدوه على الوصول إلى المكان الذي يصبح آمناً فيه على نفسه وماله ،  
وبعد أن يبلغ مأمته و يسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحه كما كان  
الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

لا ، بل على المسلمين أن يبلغوه مأمته ، ثم يتفنون فيه حكم الله إما أسراً ، وإما  
حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هي أنه من قوم لا  
يعلمون حسيباً قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[التوبة : ١٠]

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط ؛ لأن العلم له وسائل كثيرة ؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكْتِسَاب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلومات كلها تنشأ عند الإنسان إما بالأذن مما يسمع ، وإما بالعين مما يرى ، ثم بعد ذلك تستقر المعاني في نفس الإنسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨]

وهكذا حدد لنا القرآن الكريم وسائل العلم بالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلومات في الفؤاد ، لأنه الشيء يحفظ كل القضايا العقلية والفكرية . وإذا كان الإنسان يسمع ولا ينفقه شيئاً فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعذره أنه لا يعلم .  
وعلمنا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طالب علم بالحقيقة ، ويريد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ  
اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ  
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا  
لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

أى لقد جريتم العهود مع المشركين ، وفي كل مرة يعاهدونكم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاهدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أننا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون